الصمت

للكاتب الروسى ليونيد اندريف

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقى

القصة الروسية من أحق القصص بالعناية ، وذلك للطابع الذى انفردت به ، وللانسانية العالية التى تشتمل عليها ، ولأنها طبيعية صادقة ، ولتأثيرها العميق واستثارتها للعواطف ، واخيراً لما فيها من الدلالة على نفسية الشعب الروسى

وصاحبنا ليونيد اندريف من أقرب القصاصين الروس السكيار عهداً إلينا . وهو ينظر إلى الأشياء على نحو خاص به ، ويصورها بلمسات قوية من ريشته المتفحلة تظهر النور والظل بأكبر أحجامهما وأبلغ تباينهما

وفى كل قصة من قصصه فكرة مجردة يحوك حولها الأشخاص والحوادث ، وهو مع هوله يحفظ التوازن ويشعرك بأنه ليس فى الدنيا شر بحت ولا خير محض

وأندريف كمعظم معاصريه من القصاصين والكتاب نشأ من طبقة الشعب وعرف الضنك والجوع وابتلى بالكآبة والأسى . وقد تخرج فى القانون واشتغل أول أمره بالرسم ثم بالصحافة ، ولكنه لم يكد ينفر على الناس قصة « الصمت » حتى كانت له منها تباعة الذكر والشهرة الذائعة . وهى مثال رائع على طريقته فى كتابة القصة

— ١ —

فى ليلة من ليالى أيار مقمرة إضحيانة ، والبلابل فى القمراء تلمع شادية مشجية ، أقبلت أولجا ستيبانوفنا على زوجها الأب إجناتى وهو جالس الى مكتبه . وكانت أسارير وجهها ناطقة بأمض الحزن وأوجعه ، والسراج فى يدها مهتز مرتجف . فلما دانته لمست براحتها منكبه وقالت مختنقة الصوت مجهشة :

— أبتاه ، لنصعد الى ابننا ڤيروتشكا !

فتجهم الأب إجناتى وقطب حاجبيه من فوق عدسات دون أن يلتفت إليها . وظل شاخصا ببصره فى الفضاء طويلاً حتى أسقط فى يدها ، فقلبت كفها الأخرى تقليب المهموم الجزع ، وتهالكت على أريكة خفيفة هناك وقالت :

— ماأقساكما كليكما !

قالت ذلك بصوت وئيد مع التشديد أبلغ التشديد على « كليكما » . وقد تقلص وجهها المنتفخ المتحن بأمارات من الألم والعنت ، وكأنما أرادت أن تفصح بسيماها وأمارات محياها عن مبلغ ماتعانى من قسوة القوم : زوجها وابنتها

وأرسل الأب إجناتى ضحكة ونهض . ثم أطبق كتابه وخلع عدساته ودسها فى علبتها وأطال التفكير مكتئبا وقد استرسلت على صدره أجمل استرسال لحية جثلة وخطها المشيب ، وكانت تعلو وتهبط فى هوادة مع أنفاسه المتلجة العميقة

وبعد هنيهة قال : « حسن . نذهب »

فهبت أولجا واقفة . وقالت تناشده بصوت

متوجس متلهف : « وإنما رجائى اليك يا أبتاه ألا تمنعها . أنت تعرف طباعها »

وكانت غرفة فيروتشكا على سطح المنزل ، والدرج المؤدى اليها خشبى ضيق ؛ فكان ينيخ ويصر تحت أقدام الأب إجناتى وخطاه الثقيلة ، وقد اضطر الرجل لطول قامته وعظم جرمه أن ينحنى حتى لا تصطدم هامته بسقف السلم ، وكانت زوجته تتقدمه فى ثوبها الأبيض فلمس ردنها وجهه فانقبضت أساريره وعبس متململاً متبرماً . وولج الغرفة وهو على تمام اليقين بأنهما فى حديثهما مع فيرا ابنتهما لن يخرجا بطائل

وقالت فيرا : « يالله : هذان أنتما ؟ » ورفعت إلى عينيها ذراعاً عارية وبقيت ذراعها الأخرى على اللحاف الصينى الأبيض بحيث يتعذر التمييز بينهما لفرط بياض ذراعها وشفوف لونها وبرودة جسمها

فابتدرتها الأم بنـدائها : « فيروتشكا ! » وخنقتها العبرة فسكتت . وقال الأب إجناتى وهو يجاهد للتلطيف من جفاء صوته وخشونته :

— فيرا : خبرينا ماذا بك ؟

فظلت فيروتشكا صامتة

وعاود الأب إجناتى خطابه : « فيرا : أترين أمك وأنا غير أهل لمناجاتنا بأمرك والاستراحة الينا بذات صدرك ؟ ألسنا نحبك ؟ وهل لك من هم أقرب إليك وأمس بك منا ؟ بنى إلينا شجوك وصدقينى أنا الشيخ المجرب أنك واجدة بعدها بعض الراحة ، وكذلك نحن . انظرى إلى أمك المجوز وكيف عذابها . . . فيروتشكا . . . ! وأنا — وهنا تهدج صوته كأنما انشعب شىء فيه شطرين — وأنا ، أيهون علىّ ، تحسبينه يهون ؟ كأنى لست أبصرك تهب لوعة ! . . ولكن ماهى ؟ وأنا ، أبوك ، على جهل بها ، أيصح هذا ؟

ولكن فيروتشكا ما برحت صامتة . وحيالها الأب إجناتى يوالى مسح لحيته فى تحفظ ظاهر كأنما يخشى أن تنالها بالنتف أصابعه المضطربة من حيث لا يشعر . ومضى فى حديثه يقول :

— خالفت مشيئتى وذهبت الى بتروغراد — فهل لمنتك على مخالفتك ؟ أكنت يوماً عليك بالمال ضنيناً ؟ أتقولين انى لم أك براً بك حدباً عليك ؟ إذن ، لم لا تتكلمين ؟ انظرى ، أى خير أصبتِ من بتروغراد !

وانقطع الأب إجناتى عن الكلام فجأة ، وتمثل كالعيان لخاطره بناءٌ من الجرانيت هائل رهيب ، حافل بأخطار راصدة كامنة ، مكتظ بخلق غريبة أطوارهم ، جاسية مشاعرهم . وهنا ذهبت فيروتشكا وحيدة ضعيفة ، وهنا كان تلفها وضياعها ، فجاشت فى نفس الأب إجناتى نقمة على تلك المدينة الهائلة الغامضة ، تشوبها النقمة على ابنته ، وهى ما فتئت صامتة ، صامتة فى تشبث وعناد

أما فيروتشكا فأجابته بجفاء وهى مطبقة جفنيها :

— لا دخل ألبتة لبتروغراد فيما أنا فيه . على أنه لا شىء بى ، والأولى أن تذهبا للنوم ، فالساعة متأخرة

فأنّت الأم : فيروتشكا : إطمئنى إلى بصيرتك يا بنيتى !

فقاطعتها فيروتشكا نافدة الصبر : كفى ياأمى !

وجلس الأب إجناتى على مقعد وجعل يضحك ، ثم قال منهكا : « حسن والله ! ليس فى الأمر شىء بعد هذا كله ؟

فأجابت فيروتشكا بلهجة حادة ؛ وقد أقامت صعدتها واستوفزت فى فراشها :

— أبت ! أنت تعلم حبى لك ولأمى ، ولكنى إنما أشعر بخمود شديد ، وسيزول هذا كله . .

والحق أنه أولى لكما الذهاب للنوم ، وإنى لراغبة فيه أيضاً . غداً أو فى حين آخر ، سيكون لنا متسع للحديث

فهب الأب إجناتى دفعة حتى ارتج مقعده وصدم الحائط وراءه ، وأخذ بذراع زوجته قائلاً : « لنذهب »

فأنّت هذه : « فيروتشكا . . . ! »

فصاح بها الأب إجناتى : قلت لك فلنذهب . وإذا كانت قد نسيت الله ، فهل ننساه مثلها ! ولماذا !

واجتذبها للخروج فى شىء من العنوة والقسر . وكانت وهما يهبطان السلم تجر أقدامها جراً يزداد تثاقلاً وتراخيا . وغمغمت فى همسة مغضبة : أف منك ! أنت أيها القس الذى جعلتها كذلك ، وعنك دون سواك أخذت هذا الطبع . وإنك لمسئول عنه . آه يا ربى ، ما أتعسنى !

وجعلت تولول وا كفة الدمع مطروفة الجفن حتى لم تعد تتبين مواقع خطاها ، بل كانت تاركة قدمها تهبط الدرج كأنما تنساقط إلى هاوية ترغب فى التردى فيها

ومن ذلك الحين صحت عزيمة الأب إجناتى ألا يكلم ابنته . وكأنما لم تفطن الابنة الى هذا التغير منه ، وظلت كمهدها تضطجع آونة فى غرفتها وآونة تعمد الى الخروج . وكانت كثيرا ما تمسح بالراحتين عينيها كأن عليهما غشاوة . ولكن صمت الأب وابنته كان يثقل على الأم ويكربها ، فباتت وهى بالأمس الموامة بالمزاح والضحك أبعد أهل الأرض عنهما ، فتراها ذاهلة منقبضة لا تكاد تعرف ماذا تقول أو ماذا تفعل

قلنا إن فيروتشكا تخرج أحيانا للتمشى والتنزه فحدث بعد أسبوع من المقابلة الآنفة الذكر أن خرجت خروجها المعتاد كل مساء . وشاء القدر ألا يراها أبواها من بعد حية بينهما رائحة أو غادية ، فانها فى ذلك المساء ألقت بنفسها تحت عجلات القطار فشطرها نصفين

* * *

وقام الأب إجناتى نفسه بدفنها ، ولم تشهد زوجته حفلة الصلاة عليها فى الكنيسة ، لأن نعى فيروتشكا كان صدمة لها أصابتها بالفالج . ففقدت كل حراك لقدميها وذراعيها ولسانها . فبقيت طريحة فى غرفة محجوبة الضوء ، وعلى مقربة منها تدق الأجراس فى القباب معولة نادبة ، وإنها لتسمع موكب الجناز خارجا من الكنيسة وتسمع المرتلين ينشدون فى مرورهم أمام المنزل ؛ ولقد همت لترفع يدها وترسم إشارة الصليب فلم تطاوعها يدها . وأرادت أن تقول : « الوداع يافيروتشكا » ولكن لسانها لصب فى فمها هامداً مورّما ثقيلاً . وهكذا كانت طريحة بلا حراك حتى ليحسبها الرائى هاجعة فى ثقلة الكرى لولا عيناها المفتوحتان

وشهد صلاة الجناز فى الكنيسة جمع حافل من معارف الأب إجناتى والغرباء عنه . وكلهم مترحم على فيروتشكا متوجع لمصرعها ، وهم فى نفس الوقت يتتبعون حركات الأب إجناتى ونبرات صوته ليستدلوا بها على حزن عميق وجوى لاعج . إذ كانوا فى قرارة نفوسهم لا يحبون القس لما فى خلقه من عنجهية ومجرفة ، ولشدته وصرامته مع التائبين المنيبين على يديه ، فضلا عن أنه حسود جشع لا تفوته فرصة يتقاضى فيها هذا أو ذاك من أهل دائرته أكثر من حقه . فالكل هنا يودون التشفى برؤيته متألما كسيرا ، ويودون أن يروا إقراره على نفسه بأن مصرع الفتاة يركبه منه إثم مضاعف ، باعتباره أبا فظا غليظ الطبع ، وبصفته قساً ظهر عجزه عن وقاية لحمه ودمه وفلذة كبده من الخطيئة . ولذلك أمعنوا فى ملاحظته والتطلع اليه ،

ولكنه وقد آنس أن أنظارهم الى كاهله المريض الضليع يلتمسون انحناءه تحت وقر الفادحة — لم يأل جهداً فى نصب قامته وإقامة صمدته . فكان فى تلك الساعة أقل تفكيراً فى الابنة الفقيدة منه فى صيانة كرامته

فألمع كرزنوف : « قس صمدت على الغمز قناته وصلب على المعجم عوده » وكرزنوف هذا نجار يدين القس بثمن بعض الأطر . ولقد شفع ملاحظته بنفضة بالرأس الى جهته

وعلى هذه الحال من رباطة الجأش واستقامة الشطاط سار الأب إجناتى إلى المدفن ، وعلى هذه الحال نفسها عاد منه ، حتى إذا كان عند باب غرفة زوجته انحنى كاهله قليلاً ، ولعل هذا راجع إلى أن ارتفاع الباب دون قامته . ولما كان قادماً من وضح النور لم يتبين وجه زوجته عند دخوله عليها ، فلما أن تبينه وجدها هادئة ، وأنه لا دمع فى عينيها ؛ وليس بهما نقمة ولا حزن . فهما خرساوان صامتتان صمت ألم وعناد ، وكذلك جسمها البدين المتراخى المرتكن إلى حاجز الفراش

فسألها : والآن ، ماذا ؟ كيف حالك ؟

ولكن شفتيها خرساوان وعينيها صامتتان . فوضع الأب إجناتى راحته على جبينها ؛ فاذا هو خصر رطب ، ولم يبد من أولها ستيباتفنا أدنى دلالة على أنها أحست لمسته . فلما أن رفع راحتيه عن جبينها كانت عينان غائرتان سوداوان تشخصان اليه دون أن يطرف لهما هدب ، وتكاد تكون الحدقة منهما كلها قاتمة بسبب تمدد انسانيهما ، ولم يكن فيهما حزن ولا نقمة

فغمغم الأب إجناتى ، وقد بردت أطرافه وارتعدت فرائصه : «حسن ، أنا ذاهب الى غرفتى»

واجتاز قاعة الاستقبال حيث كل شىء كعهده نظيف مرتب والمقاعد الكبيرة مسربلة فى أغطيتها البيضاء كأنها الموتى فى أكفانها . وفى إحدى النوافذ قفص معلق ولكنه خاو وبابه مفتوح .

وحين ذاك نادى الأب إجناتى : « نستاسيا ! » فبدا له أن صوته أجش ، وأحس أنه يسىء صنعاً بعيد جنازة ابنته أن يرفع الصوت الى هذا الحد فى تلك الحجرات الهادئة ، فعاود النداء بصوت أكثر تلطفاً وخفوتاً : « نستاسيا ! أين الكنارى ؟ »

فأقبلت الطاهية وأنفها من كثرة النحيب منتفخ وارم ولونه قانٍ كالجزر

وأجابت بجفاء : — لا أدرى . لقد طار

فقطب الأب إجناتى حاجبيه مغضباً ، وصاح بها : « وكيف تركته يطير ؟ »

فأجهشت تبكى وتمسح دموعها بذوائب المنديل المعصوب به رأسها . وقالت :

— إنه الروح الجميلة العزيزة لسيدتى الصغيرة الراحلة ، فكيف لى بحبسه ؟

وخيل الى الأب إجناتى نفسه أن الكنارى الصغير الفاقع اللون السعيد الذى كان دأبه التغريد شامخاً برأسه قد كان حقيقة روح فيروتشكا ، وأنه لو لم يطر الكنارى لما صح القول بموت فيروتشكا ، فاشتدت على الطاهية نقمته وصرخ بها :

— اغربى عن وجهى !

ولما لم تبادر تواً الى الباب زاد قائلاً : «مجنونة !»

— ٢ —

ومنذ يوم الجنازة والصمت مخيم على البيت . وليس المراد بالصمت هنا السكون ، فان السكون إنما هو عدم الجلبة . وأما هنا فالصمت معناه أن الذين التزموا الصمت لا جرم فى مقدورهم الكلام إذا شاءوا . وهذا ما يقع فى نفس الأب إجناتى حين يلج غرفة زوجته فيلاقى نظرتها

الشاخصة ثقيلة حتى لـكأنما استحال هواء الغرفة رصاصاً يرهق رأسه وينقض ظهره . وهذا ما يقع فى نفسه حين يتأمل معزف ابنته الذى انطبع عليه صوتها ، وحين يتأمل كتبها وصورتها — وهى صورة مرسـومة بالألوان جاءت بها معها من بتروغراد . ولقـد نحا فى نظره الى صورتها نحواً خاصاً .

فهو يتطلع أول الأمر الى جيدها حيث مسقط الضوء فى الصورة فيخيل إليه أن عليه خدشاً كالذى كان على جيد ڤيروتشكا الميتة ، وإنه لفى حيرة من أمر هذا الخدش ومنشئه ، وفى كل مرة يعمل الفكر للاهتداء الى سببه وعلتـه . فلو أن القطار هو الذى صدمها فى هذا الوضع لهشم رأسها بأكمله ، ورأس ڤيرا الميتة سليم كل السلامة .

أترى بعضهم داس عليها بقدمه وهم يحملون الجثة الى المنزل ، أم أنه أثر ظفر خدشها من غير قصد ؟

ولـكن إطالة التفكير فى تفصيل مصرعها كان يشق على الأب إجناتى ويروّعه ، فيتحول عندها الى تأمل عينيها فى الصورة ، وهما سوداوان بجلاوان أهدابهما الوطفاء تلقى تحتهما ظلاً وريفاً فيزداد بياض المقلتين نصوعاً وتبدو عيناها كأنما يحوطهما إطاران كالأطر السود المجللة بالحداد . وقد جعل لهما الرسام المجهول — وهو لا شك من الفنانين الموهوبين — معنىً غريباً يخيل الى الرائى أن بين هاتين العينين وبين ما تقعان عليه غشاء رقيقاً شفيفاً فهى تذكرنا بغطاء معزف البيانو اللامع السواد تعلوه من غبار الصيف غشاوة خفيفة لا تكاد تبين ، وهى على خفائها تكمد من لألاء الخشب المجلو . وكان الأب اجناتى حيثما وضع الصورة تتابعه عيناها غير ناطقتين بل هما أبداً صامتتان . وبان الصمت فى المنزل حتى ليخيل أن فى الامكان سماعه . واستمرت الحال على هذا المنوال فوقر فى نفس الأب اجناتى أنه يسمع الصمت .

وكان الأب اجناتى فى كل صباح بعـد القربان المقدس يقصد الى قاعة الجلوس فيأخذ ببصره فى لمحة واحدة قفص الـكنارى الخاوى وسائر الأثاث فى ترتيبه المعهود . فيجلس فى أحد المقاعد الـكبيرة ويطبق جفنيه ويستمع الى صمت المنزل . وكان أمراً عجباً . فالقفص صامت فى وداعة ولطف . والأسى والدموع والضحك الطاعن الفقيد جميعاً يأنسها الرجل فى هذا الصمت . وكان صمت الزوجة مع قيام الجدران دونه لا يزال عنيداً ثقيلا عليـه كالرصاص — ومرعباً ، مرعباً حتى ليأخذه برد القرور فى أشد الأيام حمارة قيظ . أما الابنة فكان صمتها لا آخر له ، بارداً كالقبر ، غامضاً كالموت . ثم كان الصمت كأنما يشق بنفسه ، وكأنما يتهافت على التحول الى نطق ، لولا أن شيئا له قوة الآلة وجمودها يمسكه عن الحراك ويمده كامتداد السلك . وإذا السلك من مكان بعيد لا يعرفه على وجه التحديد يهتز ويصدر عنه صوت ناعم خافت حنون فتحفز الأب اجناتى الرغبـة تشوبها الرهبة على تسقط بادرة هـذا الصوت فيشد بكفيه على جانبي المقعد ويمد رأسه متسمعاً مترقباً بلوغ الصوت اليه ، ولـكن الصوت ينقطع وينطوى فى غمرة الصمت

وهنا يهتف الأب اجناتى وقد ركبه الغضب : « عبث باطل وأضغاث أحلام » . ويهبّ من مقعده مديد الشطاط ناصب القامة كعهده على الدوام .

وكانت نافذة القاعة تشرف على ساحة السوق السابحة فى ضحّ الشمس . والساحة مرصوفة بحجارة مصقولة الأطراف ممردة . وفى الناحية الأخرى

سور حجرى ممدود لا نوافذ له لأحد مخازن البضاعة . وكانت فى الركن مركبة واقفة كأنها نُصُبٌ من الطين قائم ، وكان غير مفهوم سبب وقوفها هناك دواماً مع أن الساعات الطويلة تنقضى ولا يظهر عابر واحد فى هذه الطريق .

كان على الأب اجناتى خارج البيت أن يتحدث الى الكثيرين : مع مرءوسيه من رجال الدين ، ومع السكان فى دائرته الكنسية أثناء قيامه بفرائضه ، وأحياناً مع معارفه يحاورهم فيما هو مأثور ومستحب . ولكنه حين يؤوب وتحتويه غرفته كان يخيل إليه أنه قضى سحابة نهاره صامتاً . وذاك لأنه ما كان ليتحدث الى واحد من هؤلاء عن المسألة التى هى عنده أم المسائل وأهمها والتى تهيج كل ليلة بلابله وتلمح خاطره : فيم ميتة ڤيروتشكا ؟ ؟

وقد أبى الأب اجناتى التسليم بينه وبين نفسه باستحالة حل هذه المعضلة ولم يزل على اعتقاده بامكان كشفها وجلاء غامضها .

فكان يحيى لياليه مسهداً تعاوده كل ليلة ذكرى اللحظة التى وقف فيها وزوجته فى جوف الليل الى فراش ڤيروتشكا وهو يستعطفها ويسوق اليها الرجاء أن « تكلمى ! » . فاذا بلغت به الذكرى الى هذه الكلمة تمثلت له بقية المشهد على خلاف ما وقع . ولقد حفظت عيناه المغمضتان فى ظلامهما صورة حية لا لبس بها من تلك الليلة ، فهما تتمثلان فى جلاء ڤيروتشكا تستوفز فى فراشها وتقول مبتسمة ...

ولكن ماذا قالت ؟

إن تلك الكلمة التى لم تلفظها ، والتى بها جلاء المعضلة كلها ، تلك الكلمة تتخيل له قريبة ، جد دانية . فلو أنه يرهف سمعه ويسكت خفقان قلبه ، إذن — إذن لسمعها على أنها كانت فى الوقت نفسه نازحة نائية بلا حد ولا أمل .

واذ ذاك يهب الأب اجناتى من فراشه ، ويبسط يديه مضمومتين معا فى توسل وضراعة مناديا : « ڤيروتشكا ! » .

ولا من مجيب الا الصمت .

وفى ذات مساء قصد الأب إجناتى إلى غرفة أولجا استباقنا زوجته بعد انقطاعه عنها زهاء أسبوع وجلس عند فراشها وهو مشيح بوجهه عن ناظريها الشاخصين الفاجعين ، وقال :

— أيتها الأم ! أريد التحدث معك عن ڤيروتشكا . أتسمعين ؟

ولكن ناظريها صامتان . فرفع الأب إجناتى عقيرته ، واشتد — مثل شدته مع المعترفين — فى خطابها :

— أعرف أنك تعدينى المتسبب فى مصرع ڤيروتشكا . ولكن ، مهلاً ! أكنت أقل منك حباً لها ؟ إنك لغريبة الرأى — لقد كنت متشدداً ، فهل حال ذلك بينها وبين ما شاءت ؟ لقد تغاضيت عما لى عليها وأنا أبوها من حق الاعتبار ، فطأطأت صاغراً حين ارتحلت — غير حافلة باستنزال امنتى — إلى هناك ، وأنت — أيتها الأم — ألم تضرعى إليها باكية تناشدينها البقاء ، حتى أمرتك أن تكفى ؟ أمسئول أنا عن أنها ولدت قاسية القلب ؟ ألم أعلمها ما ينبغى علمه عن الله والطاعة والحب ؟

وألقى الأب إجناتى لمحة على ناظرى زوجته الشاخصين ثم أشاح مستأنفاً :

— ماذا كنت صانعاً معها وقد أوصدت دونى مغاليق صدرها وأبت الكشف لى عن شجوها . أكنت آمرها ؟ لقد أمرتها . أكنت أستعطفها ؟ لقد استعطفتها . ماذا ؟ أترين أنه كان على أن أخر على قدمى الصبية الخرعوب راكعاً وأنتحب كالمرأة العجوز ؟ ما الذى قام بعقلها ، ومن أين أصابها

ما أصابها، لست أدرى . يا لها ابنة عاقة لا قلب لها !

ودق الأب إجناتى على ركبتيه بجمع يديه

— لقد تجرّدت من الحب — هو ذاك . وأنا على علم بما كانت تصفى به : مستبد غشوم . وأنت كانت تحبك ، أليس كذلك ؟ أنت التى بكيت ، و ... تدللت ؟

وضحك الأب إجناتى ضحكة خافتة

— تحبك ! بلى والله ، وترويحاً عنك لقد اختارت هذه الميتة ميتة شنيعة شائنة ! فماتت على القَضَض والحصى المفروشة به السكة الحديدية ، ماتت على الأقذار — كالكلب جدلته رفسة بالنعل على خطمه

وغمغم الأب إجناتى بصوت هامس أبح :

— ما أشد خزيى ! إنه ليتولانى الخزى إذا خرجت الى الطريق ! ليتولانى إذا خرجت من المحراب ، يتولانى أمام الله ! يالك ابنة قاسية خسيسة ! إنك لتستحقين اللعنة فى قبرك

وألقى الأب إجناتى على زوجته نظرة ثانية ، فاذا هى مغشى عليها ، ولم تفق من غشيتها إلا بعد ساعات . ولما أفاقت كانت عيناها صامتتين ليس فيهما ما يدل على أنها فقهت مقال الأب إجناتى لها أو لم تفقه منه شيئاً

وفى تلك الليلة ، وكانت من ليالى تموز مقمرة ساجية دافئة يخيم السكون عليها ، قام الأب إجناتى يدب على أطراف قدميه حتى لا تسمعه الزوجة ولا ممرضتها ، وصعد السلم إلى غرفة فيرو تشكا . وكانت نافذتها من عهد وفاة ابنته لم تفتح فكان فى جوها حرارة وجفاف تشوبهما رائحة احتراق خفيفة من حديد السقف المستهدف طوال النهار لوقدة الشمس . وكان إحساس الوحشة والأقواء مخيما على الغرفة التى طالت غيبة الانسان عنها ، وقد انبعثت من الألواح المكتسية بها الجدران ومن الأثاث وسائر ما بالغرفة ريح كريح العطن والانحلال

وكانت القمراء تتخلل زجاج النافذة وتنبسط على أرض الغرفة كشريط وضاء ، وكانت المناضد بطلائها الأبيض الناصع تعكسها فينير أركان الغرفة منها نور كليل شمشعانى . ويبدو الفراش الأبيض النظيف وعليه وسادتان كبرى وصغرى كأنه شبح من عالم الأطياف . وفتح الأب إجناتى النافذة فاندفع الى داخل الغرفة تيار من الهواء النقى ، يستروح السائف فى أردانه تراب النهر المجاور وعبق الزيزفونة المزهرة ، ويحمل الى المتسمع المصغى نشيداً خفيضاً لعله لقوم فى قارب على النهر يجدفون ، وفى تجذيفهم ينشدون

وخطا الأب إجناتى عارى القدمين كأنه الطيف لا يحدث صوتاً ، ودنا من الفراش الخاوى وخرّ مكباً على وجهه فوق الوسائد يضمها — حيث لا محالة كانت تضع فيرو تشكا وجهها

وظل على هذه الحال طويلا . وتعالى النشيد فى الخارج ، ثم أخذ ينخفض حتى لم يعد مسموعا ، والأب إجناتى لا يزال فى مكانه ، وشعره المرسل مشعث مهدل على كتفيه وعلى الفراش

ودلف القمر فى مسراه ، فأظلمت الغرفة واحلولكت ، ورفع الأب إجناتى رأسه ونادى بصوت أفرغ فيه كل حبه الذى أطل كبته وكظمه بلا بث ولا تصريح . وكان وهو ينادى ينصت لما يقول ، وكأن المنصت ليس هو وإنما هى فيرا

— فيرا ، يا ابنتى ! أتدركين معنى ابنتى ؟ يا بنيّتى ! مهجتى ! دمى ! حياتى !

هذا أبوك ، أبوك الشيخ المسكين وقد علاه الشيب وخذلته القوى

وانتفض منكباه وسرت الرجفة فى جثمانه

الضليع من فرعه إلى أخمصه . ثم همس متهدجا فى لين وترفق كأنما يناغى طفلة :

— أبوك الشيخ المسكين يسألك . نعم يا ڤيرا إنه يستعطفك ، إنه ليبكى ، ولم يكن من شأنه البكاء قط ، إن ألمك يابنيتى ولوعتك ، يحزان فى نفسى كما لو كانا بى . بل أشد وأنكى

وهز الأب إجناتى رأسه :

— أشد وأنكى ، ياڤيرا . وما الموت عندى ، أنا الشيخ ؟ ولكن أنت . .

آه لو علمت ما كان من رقتك ، ولطافة بنيتك ومبلغ إشفاقك وتهيبك !

أتذكرين إذ وخزت أصبعك ونضح منها الدم فطفقت تصرخين . نعم يا بنيتى !

وكنت تحبيننى حقاً ، وتشفقين بى حبا ، أعلم ذلك . وكنت فى كل صباح تقبلين يدى . تكلمى عن هذا الذى يحزنك — فأنى بهاتين اليدين خانق حزنك . إنهما ما برحتا قويتين ، هاتين اليدين ، يا ڤيرا

واهتزت خصائل شعره

— تكلمى !

وشخص بعينيه إلى الحائط ، وبسط يديه ، وصاح :

— تكلمى !

ولكن الغرفة صامتة . ثم طرقتها على بعد سحيق أصداء مديدة ومقتضبة من صفير قاطرة عابرة

فأدار الأب إجناتى عينين اتسع حملاقهما كأن قد تمثل له شبح الجثة مبتورة الاشلاء . ثم نهض من ركوعه على مهل متساندا ، ورفع إلى رأسه بحركة المذهول يداً مشنجة منفرجة الأشاجع ممدودة الأصابع . ومضى الأب إجناتى إلى الباب ، وفى خروجه همس فى حدة :

— تكلمى !

فكان جوابه الصمت

فى اليوم التالى تناول الأب إجناتى غداءه على انفراد مبكراً ، ثم أخذ سمته إلى المدفن لأول مرة بعد وفاة ابنته . وكان المدفن موصداً مهجوراً لا تحس فيه نأمة ، حتى لكأن النهار القائظ فى هدوئه ليلة مشمسة . على أن الأب إجناتى كدأبه نصب قامته مجاهداً ، وأدار بصره من جانب لآخر بجفوة وصرامة ، وهو يزعم أنه كمهده بنفسه . ولم يفطن إلى التخاذل الطارىء الفظيع يفت فى ساقيه وإلى لحيته المسترسلة قد اشتعلت شيباً كأنما أصابها صقيع هتون . وكانت الطريق الى المدفن طويلة مستقيمة آخذة فى ارتفاع لطيف المرتقى ، وفى نهايتها باب المدفن من خشب الزيزفون يظلله سقف أبيض ملتمع ، فكأنه فم مغفور الشدقين على الدوام محلولك وعلى حافته أنياب قواطع لوامع

وكان قبر ڤيرا موغلاً فى جوف المدفن بعد نهاية الممرات المفروشة بالحصباء . فكان على الأب إجناتى أن يجوس طويلا فى مسالك ضيقة على محاذاة الكثبان المتمرجة الناتئة بين حشائش مهملة مهجورة من الجميع منسية . وكان يلتقى هنا وهناك بنصب متداعية ، لونها حائل مخضر من القدم ، وحواجز منهارة متهدمة ، وصفائح من الحجارة ثقال ضخام ملقاة تهبط صدر الثرى كأن بها عليه حقداً

كمد الشيخ باسرا متجهما

وعلى مقربة من إحدى هذه الصفائح ، كان قبر ڤيرا . وكان الدر المشوشب عليه مصفراً ذابلا على حداثة عهده فى حين كل ما حوله يانع ناضر . وكانت هناك دوحتان متشابكتان ، وخميلة ممتدة من شجيرات البندق وارفة الظلال تبسط أفنانها المتأودة بأوراقها المخشوشنة الوبراء على القبر

فجلس الأب إجناتى على ضريح تجاه ضريح ابنته وهو يتشهد بين الفينة والأخرى . وجعل يتلفت حواليه ، وألقى نظرة على صحراء السماء الصافية ، وكان قرص الشمس المتقد معلقاً فى مكانه جامداً بغير حراك . وعندها فقط أحست فى نفسه عمق ذلك السكون الذى لا سكون مثله يخيم على مدفن ، والريح هامدة لا تهفو لها نسمة تعبث بالأوراق الجافة الميتة . وقام فى خاطر الأب اجناتى مرة أخرى أن هذا ليس بالسكون ولكنه الصمت ، وفاض الصمت وطم حتى بلغ أسوار المدفن نفسها وتسورها متثاقلاً وعمر المدينة . وأما آخره فهنالك فى هاتين العينين السوداوين الشاخصتين المصرتين فى تعنت وعناد على الصمت

هز الأب اجناتى كتفيه ، وقد سرت البرودة فيهما . وسرح نظره على قبر فيرا . وطال تأمله لهيدان الحشائش القصيرة المصوحة وقد صار انتزاعها من منابتها فى بعض الرياض الفيحاء الضاحية فلم يتهيأ لها تأصل ولا ترعرع فى هذه التربة الجديدة . ولقد عز على الأب اجناتى إقناع نفسه بأن هنا تحت هذه الحشائش على بعد بضعة أشبار منه ترقد فيرا ، وبدا له أن تدانى الشقة الى هذا الحد أمر غير معقول ، وإنه ليخامر نفسه منه حيرة وتوجس غريب . اذ كيف أن هذه التى تعود التفكير فيها على أنها طويت فى ظلام الأبدية السحيقة طى الأبد تكون هنا قريبة ! وكيف يعقل مع هذا أنها تلاشت من الوجود ولن تعود !

وخيل إلى الأب إجناتى أنه لو نبس بكلمة ، بالكلمة التى يكاد يحسها على شفتيه ، أو أنه لو أومأ باشارته ، لأقبلت عليه من القبر ، ووقفت أمامه ممشوقة القد جميلة كعهده بها ، ثم إنها لا تقوم وحدها ، بل إن الموتى أجمعين الذين نحس بهم ونراع من رهبة صمتهم وبرده ، كل هؤلاء أيضاً يقومون

وخلع الأب إجناتى قبعته السوداء المريضة الحاشية ، ومسح بيده على ذوائبه الشعثة ، وهمس منادياً :

— فيرا !

وأخذه القلق أن يكون يسمع منه غريب . فاعتلى الضريح وتطلع من فوق الصلبان . فلم يكن على القرب أحد ، فأعاد النداء رافعاً صوته :

— فيرا !

وكان صوته صوت الأب إجناتى المعهود من قديم جافاً آمراً ، وكان محبباً أن نداء بهذه القوة يبقى بغير جواب !

— فيرا !

ومضى الصوت ينادى عالياً ملحاً ، ولما أن سكت لحظة ، خيل اليه أن جواباً غامضاً دوى من تحت أطباق الثرى . فتلفت الأب إجناتى حواليه مرة ثانية ، ورفع مسترسل لثته عن أذنيه وألصقهما بين المدر الخشوشن الشائك فوق القبر ، ونادى :

— فيرا ! تكلمى !

فأحس الأب إجناتى فى فزع ان شيئاً له برودة القبر قد نفذ الى أذنه وجمد له عقله ، وأن فيرا تكلمت — ولكن كلامها هو ذلك الصمت الطويل نفسه ، وظل يزداد الصمت روعة وهولاً . ولما أن رفع الأب إجناتى رأسه من الأرض مجاهداً ، ووجهه شاحب كوجه الميت ، خيل اليه أن الهواء يهتز وينبض بصمت مرنان ، كأن ريحاً صرصراً ثارت على ذلك العيلم المخوف ، وأن الصمت ليزهق أنفاسه ويخنقه ، ولا تزال موجاته الثلجية متقلبة فى رأسه جيئة وذهابا فيقف لها شعره

أشعث مستطاراً ، ولا تزال منكسرة على صدره فيئن ويتأوه من وقع صدماتها . ولقد ظل مرتعد الفرائص يقلب ألحاظاً عصبية خاطفة من ناحية أخرى ، ثم قام متحاملاً فى اتئاد وبطء ، وعانى أشد الجهد وأنكاه ليرفع قامته ويرد الى بدنه المرتجف مشية الكبرياء المعهودة ، وقد أفلح بعد لأى ، وأخذ ينفض التراب عن ركبتيه متمهلاً متروياً ، ولبس القبعة ، ورسم اشارة الصليب ثلاثا على القبر ، ثم داف بخطوات متساوية ثابتة ، غير أن طرق المدفن ومعالمه اختلطت عليه فضل السبيل

فوقف عند مفترق السالك جامدا فى مكانه يضحك :

— ضللتُ السبيل !

وطالت وقفته برهة ثم عرّج من غير تفكير الى اليسار . وذلك أنه ما كان ليطيق الوقوف هنا جامدا ينتظر . ونبعه الصمت على الأثر . وهذا هو الصمت يخرج من اللحود المشوشبة ، وتتنفس عنه الصلبان الداكنة المتجهمة ، ويتصاعد نفحات دقيقة خانقة من مسام الأرض المتشعبة جثثا ورماما والأب إجناتى يضاعف خطاه مسرعاً ، وقد سدر بصره وذهل عن نفسه ، فهو يطوف بالمسالك يمينها المرة بعد الأخرى ، واثبا فوق القبور ، متعثراً بالحواجز ، يهوى بكفه على الأكاليل من الصفيح شائكة فيتمزق قماشها الرفيق الناعم فى يديه . ولقد ذهل عن كل تفكير الا فكرة واحدة وهى الخروج من هذا المكان . فاندفع من ناحية الى أخرى ، وأخيراً انطلق يعدو فى سكون ، شبحا مديد القامة لا تكاد تتعرفه فى برنسه الخافق وراءه ، وشعره المتهدل المرسل فى الهواء

وان رؤية ميت قائم من القبر لأخف هولاً من ملاقاة هذا الرجل طالعاً عليك بمنظره الأشعث الآبد ، راكضا ، واثبا ، ملوحا بذراعيه — حين تتبين وجهه ممسوخ السحنة مجنونها ، وتسمع حشرجة أنفاسه تتدافع بصوت أجش من فمه المفغور

وانتهى الأب اجناتى وهو فى أقصى سرعته الى الرحبة الصغيرة التى تقوم فى آخرها كنيسة المدفن متطامنة مجصصة . وكان على مقعد طويل عند مدخلها شيخ مهوم بلوح كالحاج من بعيد ، والى مقربة منه امرأتان عجوزان من المتسولات فى شجار وصياح تتشاحنان وتتباهلان

ولما بلغ الأب اجناتى منزله ، كان الليل قد دجا والمصباح قد أسرج فى غرفة أولجا استبانفنا ، فأقبل عليها دون أن يبدل ثيابه أو ينزع قبعته المزغة المتربة وترامى على أقدام زوجته راكعا وانتحب :

— أيتها الأم — أولجا — رحماك رق لحالى أكاد أفقد صوابى

وصدم بحافة المائدة رأسه وانتحب نحيباً صاخبا وجيما ، شأن الكظيم ينتحب لأول مرة ؛ ثم رفع رأسه على يقين من أنه بعد قليل تظهر المعجزة فتتكلم زوجته وترق لحاله

— يا زوجتى العزيزة

وتهافت بكل جسمه الضخم ضارعا اليها مستعطفا اياها . فالتقى بالنظرة الشاخصة من عينيها السوداوين . ولم يكن فيهما رحمة ولا نقمة . ربما تكون زوجته قد صفحت عنه ورقت لحاله ، ولكن عينيها لا رحمة فيهما ولا مغفرة . انهما على حالها خرساوان صامتتان

* * *

والبيت كله فى وحشة صامت

عبد الرحمن صدقى